الفَعَلةُ قليلون!

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

جاء في الإنجيل على لسان الربّ: "الحصادُ كثيرٌ والفعلةُ قليلون. فاطلبوا إلى ربّ الحصاد أن يرسل فعلةً لحصاده" (متى٣٧/٩). جاء هذا الكلام بعد كلام الإنجيل عن تنقّل يسوع، في جميع المدن والقرى، يعلّم، ويعلن بشارة الملكوت، ويشفي المرضى، "ولمّا رأى الجموع تحنّن عليهم، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنمٍ لا راعي لها" (متى٣٦/٩).

أتراه قَصَدَ أنّ العمال المطلوبين لحصاده سيبقون قلائل؟ أم أنّ الأمناء منهم هم القلائل؟

لا يعطي الإنجيل جواباً على هذا السؤال. فقط يتابع الكلام، ليتحدّث عن دعوة التلاميذ الاثني عشر، ويورد، في الإصحاح العاشر من متّى، توصيات الربّ يسوع لهم؛ توصيات ليست بالسهلة، لأنّها تتطلّب من الزهد ونكران الذات الشيء الكثير.

كثيرون ممّن انطلقوا، في بدء خدمتهم الكهنوتيّة، بحماسة وصدق، ما استطاعوا الاستمرار في الوهج إيّاه. "هموم الحياة،" وكثرة المتاعب، وقلّة التعزيات البشريّة من حولهم، جعلت حميّتهم تبرد، فدخلوا في دوامة الروتين وتتميم الخدمات، لا أكثر.

الكاهن رسولٌ، وإلّا فإنّه يصير موظفاً يُعنى بالشؤون الدينيّة. الرسول حاملُ رسالةٍ، أي عنده هدفٌ وَهَمٌّ وسعيٌ لإيصال رسالته بالطرق الفضلى الممكنة. الكاهن الرسول تتآكله كلمةُ الله وخلاص النفوس. لا يهدأ له بالٌ ولا يتوقّف عن العمل في سبيلهما. حبُّه لرعيّته من حبِّه لربّه: "يا سمعان بن يونا، أتحبّني أكثر من هؤلاء؟ نعم ياربّ، أنت تعرف أنّي أحبّك. فقال له: ارعَ خرافي" (يو ٢١: ١٦).

من أين تأتي رسوليّة الكاهن؟ وكيف يحفظها متّقدة في داخله؟ وكيف يواجه متاعبها وتجاربها، فلا يسمح لبرودة الرعيّة والمؤسسة الكنسيّة، بوجهها البشري، بالتسرّب إليه؟ ما الذي يحتاجه على الأكثر، وهو في النهاية، إنسانٌ حاملٌ خطاياه وضعفاته، وإن كان يرنو إلى أن يتجاوزها، بحبّه الأمين لربّه، وإخلاصه له؟ كيف تساعده الرعيّة كي يبقى على الأمانة؟ وما المطلوب من المؤسّسة الكنسيّة في هذا الصدد؟

ثمّة سؤالٌ مُلِحٌّ آخر: لماذا "الفعلة" قليلون؟ ومن أين يأتون؟ وكيف يعرفون أنّ الله يدعوهم إلى تكريس ذواتهم، لخدمته في جسده الحيّ، الكنيسة؟

هذه عيّنة من أسئلة لا بدّ من طرحها على الضمير الشخصي والكنسي. إن أردنا كنيسةً "مجيدةً لا عيب فيها ولا تجعّد، ولا ما أشبه ذلك" (أف ٥ : ٢٧)، فعلينا أن نطرح السؤال، ونبحث عن الجواب!

كانت العائلات قديماً تفتخر بتقديم أفضل أبنائها للربّ. كان البكر مخصّصاً للربّ، ومُكَرَّساً له في العهد القديم. أمّا في العهد الجديد فصار جميع المؤمنين والمؤمنات مكرَّسين للربّ، وتالياً فكلّهم مسؤولٌ عن تسيير الخدمة الروحية في الكنيسة. طبعاً، كلٌّ بحسب موهبته ودعوته. "وأمّا أنتم فنسلٌ مختار و**كهنوتٌ ملوكيّ** وأمّةٌ مقدّسة وشعبٌ اقتناه الله لإعلان فضائله" (١بط ٢: ٩).

يُظهِر تاريخ الكنيسة أنّ توافر الدعوات الكهنوتية يتنامى طرداً مع وفرة العائلات التقيّة، وممارسة الصلاة اليوميّة والأصوام في البيوت، بالتزامن مع الاشتراك في الصلوات الطقسية في الكنيسة مع سائر المؤمنين.

لذلك، عندما يتناقص عدد الكهنة وتصبح الحاجة ماسّة إليهم، ستواجه عائلاتنا سؤالاً في اليوم الأخير، وقد يكون سؤالاً صعباً: "ماذا عنكم؟ أين دوركم؟ ماذا فعلتم بأولادكم؟ وكيف ربّيتموهم؟ هل نشّأتموهم على حبّ الله وكنيسته، والسعي إليه وإلى ملكوته؟ أم اكتفيتم بتنشئتهم على العلم والرياضة والموسيقى واللغات... وكلّ ما تظنّونه ينفعهم في هذه الدنيا فقط لا غير؟

إنّه لصحيح أنّ الكهنوت دعوة، وقد قال الربّ لتلاميذه: "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم، وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمرٍ، ويدوم ثمركم، لكي يعطيكم الآب كلّ ما طلبتم باسمي" (يو١٥: ١٦). لكن ثمّة سؤالٌ يُطرح هنا أيضاً. كيف يدعو الربّ رسلاً جدداً له الآن؟ كيف يدعوني أنا؟ كيف أعرف أنّه يريدني كاهناً له؟ كيف يدعو ولدي؟ ما هي العلامات التي تشير إلى هذه الدعوة؟ .... إلخ.

من أجل ذلك أقامت الأبرشية بالتعاون مع منظمة "الإيمان القديم" خلوةً روحيّةً بعنوان "هل تريد أن تصبح كاهناً"، دعت إليها شبيبة الأبرشية من الذين يشعرون بالرغبة في الكهنوت، لكنّهم يحتاجون إلى التثبّت من دعوتهم والتعمّق فيها.

أقول للشباب: تذكّروا قول الربّ: "الفعلةُ قليلون"، ولا تنتظروا دعوة أقوى منها. ماذا تريدون أكثر من طلبه: "اطلبوا إلى ربّ الحصاد أن يرسل فعلةً لحصاده." لعلّه دعاك

كثيراً، يا بنيّ، ولم تسمع صوته. أصغِ إليه في هدأة صلاتك. ضعْ ذاتك بين يديه، وادعه ليفعل بك ما يشاء. أيّ دعوة أخرى تنتظر، إزاء حاجة الكنيسة ونمو عدد المهتدين، لترمي ذاتك في مغامرة الحبّ هذه، إلى أن يرفعك إلى ملكوته؟!

انتبه فقط ألّا تدخل هذه الخدمة، إلّا وأنت مُشبَع بحبّ الله وشعبه.

رحم الله أبي، الذي مانعني، حتّى اللحظة الأخيرة. لكنّه، وحين تأكّد من إصراري، قال بلهجة السيّد الآمِر: "أَنهِ دراستك الجامعيّة أوّلاً، يا بُنيّ. فالكهنوت خدمةٌ ترفعك إلى السماء، أو تُحدرك إلى الجحيم. أريد أن تكون طريقك آمنة. فإذا اكتشفتَ أنّك غير قادر على متابعة هذه الطريق، أو أنّك قد أخطأت الاختيار، فشهادتك الجامعيّة تحفظك من أن تجبر نفسك على الاستمرار قسراً فيه، وتالياً تسيء إليه. لا أريد لابني أن **يمتهن** الخدمة الكهنوتيّة". لقد أرادني رسولاً لا رجل خدمات دينيّة. ضايقني جدّاً بكلامه آنذاك، لكنّي استوعبت صحّته وأهميّته في ما بعد؛ أثناء دراستي اللاهوتيّة. وشكرت الله وأبي عليه كثيراً، ولا أزال.